أنـــواع القلـــوب

إن الحمد لله ، نحمده تعالى ونستعينه ونستغفره ونستهديه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا ، من يهد الله فلا مُضل له ، ومن يُضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله إمام المتقين وسيد المرسلين وحبيب رب العالمين ، فصل الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين ...

أما بعد :

فإن الحديث عن القلوب حديث بالغ الأهمية في وقت قست فيه القلوب وضعف فيه الإيمان ، ونحن أيها الإخوة نرى في هذا العصر تطوراً هائلاً في جراحة القلب حتى كان ما نسمع به عن زراعة قلب جديد أو نقله من جسم إلى آخر ، ولن أتحدث هنا عن الأمراض الحسية التي تصيب هذه القلوب ولكنني سأتحدث عن مواطن الابتلاء والامتحان لهذه القلوب .

ولأن الحديث عن القلب يكتسب عدة أمور :

أولاً : أن الله سبحانه وتعالى أمر بتطهر القلب وتنقيته وتربيته .

ثانياً : إن كثير من الناس قد شغلتهم المظاهر البراقة وغفلوا عن إصلاح قلوبهم وتزكيتها .

تكرار الحديث عن القلوب في الكتاب والسُنّة :

ولهذا فقد ورد اسم القلب في مواضع كثيرة من كتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ فمن ذلك يقول الله تعالى على لسان نبيه إبراهيم عليه السلام ﴿ **وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ (٨٧) يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (٨٨) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٩)** ﴾ [الشعراء :٨٧-٨٩] ، ويقول جل وعلا : ﴿ **وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ (٣١) هَذَا مَا تُوعَدُونَ**

لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ (٣٢) مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ (٣٣) ﴾ [ق ٣١-٣٣]. وقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٢٤) ﴾ [الأنفال: ٢٤]، وقال تعالى مخاطباً نبيه في حق المنافقين: ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغًا (٦٣) ﴾ [النساء: ٦٣]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿ أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا ﴾ [النور: ٥٠].

وفي الحديث ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أجسامكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم**»، وفي الصحيحين يقول الرسول ﷺ: «**ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب**».

إذن أيها الإخوة الكرام: ما سمي القلب قلباً إلا لأنه سريع التقلب، حيث قال ﷺ: «**إنما سمي القلب من تقلبه**»، وقال أيضاً: «**إنما مثل القلب كمثل ريشة بأرض فلاة تقلبها الريح ظهراً لبطن**» وهو شديد التقلب كما جاء وصفه في قوله سبحانه وتعالى: ﴿ أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ ﴾ [الأنفال: ٢٤].

أقسام القلوب:

وعليه فإن القلوب تنقسم إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: هم أصحاب القلوب الحية: وهم الذين استثناهم الله عز وجل في قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ لا يَنفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ (٨٨) إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٩) ﴾ [الشعراء ٨٨-٨٩]، إن القلوب الحية هي التي لا تعرف الأسقام والأمراض، كأمثال خبيب بن عدي رضي الله عنه: أُخذ أسيراً وذهب به إلى مكة فجرجر بالحبال وعذب وأدخل في بيت سقفه مفتوح والشمس تصهر رأسه، ثم أخرج إلى بطحاء مكة للإعدام، فلم يتذكر أحداً من أهله ولم يتذكر أطفاله الصغار ولم

يخش على نفسه من الهلاك ، لماذا؟ ،لأنه من أصحاب القلوب الحية ، يحيون لله ويموتون لله ، ثم قال: دعوني أصلي لله ركعتين ، فتركوه يصلي ثم التفت إليهم وقال: والله لولا أن تقولوا جَزعاً من الموت لأطلت الركعتين ، ثم دعاء ربه فقال: اللهم أحصهم عدداً واقتلهم بدداً ولا تغادر منهم أحداً ، فقال له أبو سفيان : يا خبيب أتريد أن يكون محمداً مكانك وأنت في أهلك ومالك معافى ، فابتسم خبيب لأنه من أصحاب القلوب الحية ، ثم قال لهم: والله الذي لا إله إلا غيره ، لا أريد أن يشاك محمد بشوكة وأنا في أهلي ومالي معافى ، ثم قال السلام عليك يا رسول الله ، اللهم أبلغ رسولك ما لقينا ، وكان عليه الصلاة والسلام يقول وهو في المدينة: «**السلام عليك يا خبيب ، السلام عليك يا خبيب ، السلام عليك يا خبيب** » ، ولما رفعوه إلى المشنقة أخذ ينشد ويقول :

ولست أبالي حين أقتل مسلماً ... على أي جنب كان في الله مصرعي

وذلك في ذات الإله وإن يشأ ... يبارك على أشلاء شلو ممزع

وهذا جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه ، صاحب قلب سليم حي ، نستشف ذلك من قصته لما بدأ القتال في معركة مؤته،يوم كنا نقاتل من أجل لا إله إلا الله، فقتل في هذه المعركة زيد بن حارثة،وأخذ الراية من بعده جعفر وكانت أمنيته الكبرى أن يموت في سبيل الله لأنه من أصحاب القلوب الحية،فقاتل من الصباح حتى الظهر فقطعت يمينه ، فأخذ الراية بشماله وقاتل حتى العصر،فقطعت يده اليسرى فاحتضن الراية بصدره ولم تسقط منه الراية حتى خرجت روحه وهو يقول:

يا حبذا الجنة واقترابها ... طيبة وبارد شرابها

دور وظلم قد دنا عذابها ... كافرة بعيدة أنسابها

القسم الثاني: هم أصحاب القلوب الميتة، وهم الذين قال الله فيهم: ﴿ فَإِنَّهَا لا تَعْمى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ [الحج :٤٦] . فمن هؤلاء أصحاب القلوب الميتة ، فرعون عليه غضب الله ، الذي كان يعلم أن موسى على

الحق وأنه نبي مرسل ، ولكن فرعون قلبه ميت ، شاهد أمام عينيه الثعبان يلقف ما صنع سحرته ، لكنه لم يعتبر ولم يذكر ، لأنه صاحب قلب ميت ، بل أعرض وتكبر واستكبر ، وقال ما علمت لكم من إله غيري ، وكذلك أبو جهل ، فرعون هذه الأمة ، صاحب قلب ميت، لقد آذى رسول الله ﷺ واتهمه بالجنون والسحر والكهانة ، وعاقبه الله في معركة بدر فقتل شر قتلة ، وهو سكران ، قتله طفلان صغيران من المسلمين ، ثم صعد بلال على صدره وأخذ يلطم وجهه ويقول له: ذق يا عدو الله ، فهذا مصير الظالمين دوماً وأبداً ، والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون .

أما القسم الثالث من أقسام القلوب، فهو القلب المريض ، وهم أصحاب القلوب المريضة الذين قال الله فيهم ، ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾ ﴾ [النساء :٦٣] . وإنه لن ينجوا يوم القيامة إلا من أتى الله بقلب سليم ، وإن الويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله ، وإن الوعد بالجنة لمن خشي الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب ، ولذلك كان لا بد للمؤمن من أن يتحسس قلبه ويعرف مكامن الداء وسبب المرض ويشرع في العلاج قبل أن يطغى عليه الران .

أمراض القلوب :

إن هذه القلوب قد تصاب بأمراض كثيرة وخطيرة ، منها على سبيل المثال: مرض الإقفال كما قال تعالى : ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴿٢٤﴾ ﴾ [محمد :٢٤] ، وقد تصاب بمرض آخر يسمى مرض الطبع كما قال تعالى : ﴿ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ [المنافقون: ٣] ،وبعضها يختم عليه بمرض الختم والران كما قال تعالى : ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ [المطففين : ١٤] . والبعض الآخر قلب منكوس لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً

إلا ما أشرب من هواه ، وهناك مرض آخر يسمى مرض العمى كما قال تعالى : ﴿ فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ [الحج :٤٦] .

وكذلك من الأمراض التي تصيب القلب مرض القسوة، لأن صاحب القلب القاسي لا تؤثر فيه المواعظ والعبر ولا تؤثر فيه موعظة الموت ولا رؤية الأموات والجنائز، ولربما حمل الجنازة بنفسه وواراها التراب، ولكن سيره بين القبور كسيره بين الأحجار، حتى ليحس أن قلبه قد انقلب حجراً صلباً لا يترشح منه شيء ،ولا يأتي بشيء،وهذه القسوة التي في القلب لا يزيلها إلا ذكر الله والتذلل بين يديه، قال تعالى مبيناً أثر الذكر على القلب : ﴿ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ .

[الرعد : ٢٨] .

وقال ابن القيم رحمه الله :يوجد في القلب قسوة لا يذيبها إلا ذكر الله تعالى ، وقال رجل للحسن البصري رحمه الله : يا أبا سعيد أشكوا إليك قسوة قلبي ، قال: أذبه بالذكر ، وقال مكحول: ذكر الله شفاء ، وذكر الناس داء ، والله جل وعلا قد ضرب مثلاً لهذه القلوب بقوله تعالى ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾ [البقرة : ٧٤] . ثم حث عباده المؤمنين بتزكية قلوبهم كما في قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ [الحديد: ١٦] .

وكذلك قد تصاب هذه القلوب بأمراض وأسقام أخرى ، من أشدها فتكاً وضرراً مرض النفاق: وهو مرض خطير جداً على القلب ، ولا يتصور أحداً أن النفاق قد انتهى بنهاية عهد النبي ﷺ ، بل إن النفاق اليوم ، لا يقل خطورة عنه في الماضي ، ولقد كان السلف الصالح يخشون على أنفسهم من النفاق ، فهذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يناشد حذيفة بن اليمان رضي الله عنه ويقول له: أسألك بالله هل عدَّني رسول الله ﷺ من المنافقين؟ ، فقال: لا ، ولا أزكّي أحداً بعدك .

وكذلك مرض الشبه وسوء الظن بالله ، فهذا من أعظم أمراض القلوب حيث يقول الله تعالى في هؤلاء: ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ﴾ [آل عمران: ٧] .ويقول أيضاً في آية أخرى: ﴿ أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا ﴾ [النور: ٥٠]، ويوجد من الناس من أصيب بهذا المرض، فيسيء الظن بالله تعالى ويكذب بوعده ونصره لعباده المؤمنين وبرعايته للمجاهدين في سبيله ، ومنهم من يسيء الظن بربه ألا يرزقه، فتجده دائماً يثق بما في أيدي الناس أعظم من ثقته بما عند الله ، ناسياً التوكل على الله والثقة به ، وهو الذي يقول: ﴿ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا ﴾ [هود: ٦] وقد ذم الله سبحانه وتعالى من يسيء الظن به وجعل ذلك من أمر الجاهلية حيث قال تعالى :﴿ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ ﴾ [آل عمران: ١٥٤] .وقال سبحانه: ﴿ وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا ﴾ [الفتح: ١٢]. وقال ﷺ: «إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث » .

وهناك مرض ثالث يصيب هذه القلوب، وهو الحسد والغيرة ، ولا ينجوا منه إلا القليل ، كما يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : والحسد مرض من أمراض القلب وهو غالب، فلا يخلص منه إلا القليل من الناس ، ولهذا قيل: ما خلا جسد من حسد ، ولكن اللئيم يبديه والكريم يخفيه، وفي الحديث المتفق عليه « **لا تباغضوا ولا تحاسدوا** » وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «**إياكم والحسد فإن الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب**» أو قال «**العشب**» وإما كثرة الإعجاب بالنفس واحتقار الآخرين والاستهزاء بهم ، فهذا خطر كبير ومرض وبيل ، يؤدي بهذه القلوب إلى التهلكة ، أما الكبر والغرور فهو من أخطر أمراض القلوب ، ولهذا يقول الله عز وجل : ﴿ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ [غافر: ٣٥]. ويقول أيضاً: ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ [الاعراف : ١٤٦]. ويقول سبحانه وتعالى :

﴿ تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [القصص:٨٣] . ويقول الرسول ﷺ : «**لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر**» ، وقد كثر في زماننا هذا احتقار الآخرين والتعالي عليهم ، بعض الناس يحتقر من دونه في العلم أو الرتبة أو الوظيفة ، وقد يكون ذلك الذي يحتقره فقيراً أو فراشاً ولكنه أحب إلى الله وأفضل منه،كما يقول الرسول ﷺ : «**رُبَّ أشعث أغبر مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله لأبره**» .

خاتمـــــة:

وختاماً أيها المسلمون إن الابتعاد عن الأجواء الإيمانية يورث موت القلوب ، ويخلف وحشة يقسوا على إثرها القلب ويخبوا فيه نور الإيمان ، فكلما ابتعد الإنسان عن الصلاة والمساجد ومجالسة الصالحين كلما زادت قسوة قلبه وضعف إيمانه . ولهذا يقول الله عزّ وجل : ﴿ وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ [الحديد : ١٦] ، والمؤمن الذي فارق أماكن الخير والصلاح فترة طويلة فإنه يفتقد الجو الإيماني ، ولذلك لما توفي رسول الله ﷺ قال الصحابة رضوان الله عليهم: لقد أنكرنا قلوبنا، وأصابهم وحشة لفراق رسولهم العظيم محمد ﷺ ، لأنه كان يذكرهم بالله، ويحث قلوبهم كي تتعلق بمحبته وتأنس بقربه ، ولهذا يقول الله سبحانه وتعالى مخاطباً عباده المؤمنين: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الأنفال:٢٤] . وقال تعالى : ﴿ رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴿٨﴾ ﴾. [آل عمران : ٨] .